

بمناسبة مرور عام....

◆ عبدالكريم يحيى الزبياري

بعد مرور عام على إصدار العدد الأول من مجلة آفاق سببرين، هذه المجلة الفصلية: متخصصة بالأدب والثقافة والفكر، ولا زالت طبيعة عمل المجلة مختلفة بشكل كبير عن بقية المجالات والصحف الأدبية الأخرى، ليس لأنها استطاعت الاستمرار بجهود فردية وكادر متواضع (ثلاثة = رئيس تحرير + مدير تحرير + مصمم). وليس لأنها حافظت على استقلاليتها وحرصت على المهنية العالية في النشر، وليس لأنها خطوة في طريق التثقيف، بل لأنها تحاول مخاطبة الآخر بلغة الثقافة، وأحياناً بعض المجالات والصحف تنسى أنها تخاطب الآخر، وإذا بها لا تخاطب إلا نفسها، وتؤسس بذلك قطيعة مع القراء، فليس هناك مبرر لأن أتكلم مع رجل من جلدي بلغة إنكليزية، وليس من المعقول أن أتكلم مع رجل إنكليزي، إلا بلغته، لأنني أوجه خطاباً، أنتظر من خطابي أن يحدث تأثيراً ما.

بعد عام كامل من إرهاصات العمل، وإشكاليات الثقافة التي تتقاطع مع العمل الثقافي، ولو تجاوزنا مسألة طباعة المجلة، فلن نستطيع أبداً أن نتجاوز مشكلة التوزيع، حيث تتحكم في مسألة التوزيع عوامل منها مزاج الموزعين وأصحاب المكتبات، مع غياب تام لأي دور مؤسساتي في عملية التوزيع كما في بقية الدول الأخرى، وكانت الدار الوطنية سابقاً تقوم بهذا الدور، واليوم لدينا عدة منافذ للتوزيع، لكنها ضعيفة ولا تمتلك القدرة على تغطية عموم العراق، وبهذا نخلت المجلة في صراع غير متكافئ مع هذه العوامل المثبطة لأي انتشار فعال، فحين تكون بعض العوامل بيد الطارئين على الثقافة والمرتقين منها، ستكون الكارثة، حيث سينغلق هؤلاء على هويتهم الوطنية، وقوميتهم، ومعتقدهم الطائفي.

الثقاف الحقيقي إنساني النزعة في خطابه، ورؤيته، لأن في ذهنه، فكرة قد استقرت منذ نشأته، وهي أن البشر جميعهم متساوون، وقد حدث ربما لبس في مفهوم الحديث الشريف (العلماء ورثة الأنبياء) فالعالم ليس هو ذلك الذي يقبع في مختبره ليصنع قنبلة نووية تودي بحياة الآلاف، أو يخترع لنا جهازاً طبياً، هذا ليس بالعالم المقصود، العالم هو من يساهم

في تغيير المجتمع الذي يعيش فيه، نحو الأفضل، أو يحاول على الأقل، ويدعو باستمرار، ويخالطهم بخُلُقٍ حسنٍ، وهو ينوءُ بهمُ الإنسانية الغارقة في بحار العنف والدماء.

الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي، يوازيه ازدهار علمي، ثقافي، عمراني، وإذا تخلف أحد الخطين عن الآخر في حركته الموازية، ربما يؤثر سلباً في الآخر.

وإذا كان مستقبل الثقافة مرهوناً بسقف حرية التعبير الذي تسمح به الدولة، فإن الأدب أهم أدوات الثقافة، والثقافة هي السبيل الوحيد للتعايش والتعارف في سلام، ليس بين الشعوب، بل بين أبناء الشعب الواحد أيضاً، لذا فإن مستقبل الأدب مرتبط باستقلاليتته، وعدم أدلجته، وكلنا يرى أكوام كتب الأدب المؤدلج في مزبلة التاريخ، وأدباء الإيديولوجيات إلى حيث ألفت رَحْلُهَا أم قَشَعُم. أعتقد إن بقاء مجلة ثقافية في الصدارة، لن يكون إلا بحياسة ثقة القارئ، وثقة القارئ لن تتأتى إلا باعتماد أسس وسياقات ثقافية عند اختيار النص المنشور.

إذا أردنا دراسة المستوى الثقافي لشعب ما، سنحتاج لرسم خط بياني، رسم محورين متقاطعين في نقطة الأصل، يمثل المحور الأفقي، المستوى الثقافي، ويمثل العمودي مستوى النشر، لكن مستوى النشر سيستدعي خطأً بيانياً آخر، بين نشر الكتب والمجلات الثقافية، وبالطبع للمجلات الثقافية انتشار أوسع، لأن الكتاب أكثر تخصصاً، وهي تساهم في تفعيل وتنشيط الحركة الثقافية، كدور مجلة الرسالة المصرية، ومجلة الآداب البيروتية، حيث ساهمتا في تحديث الأدب العربي، من خلال ربط التراث بالحدثة الغربية، وثقافات الشعوب الأخرى.

وقدمت المجلة نصوصاً مختلفة، استطاعت ربما أن تعكس بعض الاتجاهات الثقافية الجديدة، فمن مرواة الدكتور عمار أحمد، إلى النص الرقمي، مروراً بترجمة نصوص لم يسبق ترجمتها كتعريف فلاديمير بروب لمفهوم الحكاية من اللغة الروسية مباشرة، واستطاعت أن تتواصل مع شعراء وأدباء وفنانين تشكيليّين من شتى أنحاء العالم، ولم تتعامل إلا مع جودة النص، وحققت تواصلًا مع ثقافات البلاد العربية الأخرى، وكذلك أخذت المجلة على عاتقها التعريف بالشعب الكردي كشعب مسلم، كان ولا زال ينظر إلى العالم الإسلامي كوطن كبير، بعيداً عن التعصب القومي الكريه، وإذا كان الإنسان عدواً لما جهل، أخذت المجلة على عاتقها التعريف بأداب الشعب الكردي، كما أمر الله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) الحجرات: 13، لأننا إذا لم نتعارف، ونتحاور، سنتجاهل، وجاهل بعضنا بعضاً، ثم جهل بعضنا على بعض، ثم نتقاتل، فحين يصمت القلم، يصرخ الرصاص، وإذا صرخ الرصاص، لم يجد أنذاك القلم.

ونرجو من السادة القراء: عدم الانزعاج لعدم النشر، أو تأخره، لأنه ليس بمقدور أية مجلة أن تنشر كل ما يرد إليها ولو كانت من مليون صفحة، وأحياناً قد نضطر لنشر نص ليس سيئاً ولكنّه أيضاً غير جيد بحسب رأبي الشخصي، ولكنّه ربما كان جيداً بحسب آخرين. ويبقى الأفضل شرط الأسوأ.